

الأدب الماخن

بقلم النجدي ناصف

مفتش المعارف بملوى

هو هذا الذى تعرضه الكتب المتبذلة ، ويزجيه كثير من المجلات والصحف الأسبوعية ، فى لغته الفسلة الواهنة ، وموضوعاته التافهة المردولة ، لا تقيه فيها ولا تصون .

وأكثر ما يشيع هذا النوع فى عصور التفكك والانحلال ، وإبان التحول والانتقال من طور إلى طور ؛ لأن الأمة أيام الانحلال والتفكك تكون على حالة من وهن العزيمة ، وقصور الهمة ، وفساد المزاج - لا تكاد معها تستطيب غير الحياة اللاهية العقيم ، وما تنطوى عليه من عبث ومجون وإيثار للعافية فى جميع الشئون . وهى إبان التحول والانتقال تنور على التقاليد والعرف ، وتعمل فى غير هواة لقلب الأوضاع وتغيير المقاييس . وهيات مع هذه الحدة الغالبة أن تحسن تمييز الحبيث من الطيب ، أو تصبر على إنعام النظر فيما تمضى إليه ؛ فيشتبه عليها الرائج والزئيف ، ولا تكاد تسلم من العثار والزلل .

ولا ريب أن الواجب الوطنى فى هاتين الحالتين - يقتضى كل ذى مقدرة أن يتقدم بنصيه من العمل لخير أمته ، ودرء الخطر الاجتماعى الذى يهددها . ولعل واجب الأدباء والمربين فى هذه السبيل أجل الواجبات قدرا ، وأعمقها أثرا ، وأقواها فعلا ؛ لأنهم بفضل ما لهم من بلاغة وصحة منطق ، وسطوة برهان ، وسعة خيال ، وسيطرة على الترية - يستطيعون أن يقوموا العوج ، ويتداركوا الضعف ، ويثيروا المحجة ، ويبثوا الدعوة .

ونحن اليوم فى مستهل نهضة اجتماعية ؛ أى فى طور تحول وانتقال ، تشوبه بعض مساوى الماضى . فلا بد من تعاون الجهود على سلامة هذه النهضة ، وتعهدها بأسباب القوة والاتزان ، حتى تستطيع التخلص من قيودها وأثقالها ، وتشب

شبابا صالحا: لاوهن فيه ، ولا شذوذ . فهل تراهم جميعا يضطلعون بهذا الواجب الحتم على النمط الذى يقضى به خير الأمة ، وتتطلبه حالة النهضة الحاضرة ؟ الأمر بين لا لبس فيه ولا خفاء ، فها نحن أولاء نشهد رجال التربية والتعليم على اختلاف واجباتهم ومناصبهم ، لا يألون الجهد فى الإصلاح والتجديد ؛ لتغذية النهضة ، وتنشئة المتعلمين تنشئة أساسها الرغبة فى إعدادهم للمستقبل إعدادا صالحا ، فى الأدب والثقافة والأخلاق ، ونرى بعض الأدباء يقصرون تاجهم الأدبى فى الصحف والمؤلفات وما إليها - على فنون الأدب الجدد ، ويربثون بأقلامهم أن تجول فى غير البحوث الحسنة الثمينة ، وبلغتهم أن تشوبها شائبة من العامية ، أو يصيبها مس من ركازة أضعف . فأدبهم فى الجملة أدب غنى كريم ، يشد أزر المدرسة ، ويظهرها على أداء واجبها ، بما يعرض من متعة وجمال ، وما يبعث من ثقافة وتهذيب ورياضة على التفكير وحسب الاستزادة والبحث .

يبد أن نتاج هذا الأدب لا يساير النهضة فى نمائها واتساع محيطها ؛ لما يلقى أصحابه من عنت فى الطبع والنشر ، إذ ليس لها بيننا شركات قوية منظمة ، كتلك التى فى الأقطار الراقية . ولولا أن بعض أدبائنا يستطيعون لأسباب خاصة أن يعتمدوا على أنفسهم فى طبع مؤلفاتهم ونشرها . لفقرت الحياة الأدبية ، ولم تجد لها مددا يذكر من غير كتب الأدب القديم التى تبعها دار الكتب المصرية وبعض المطابع .

وثمة سبب آخر ، له قوته وشدة تأثيره : ذلك هو تناقص الإقبال على الأدب الجدد ، وانصراف أكثر القارئین عنه ، حتى أصبح إخراج كتاب فيه عملا غير مأمون ، لا يقدم عليه من أكثر الأدباء إلا مغامر جريء . ومهما يقل عن رواج بعض المؤلفات وشدة التفاهت عليها ، فهو ولا ريب أقل مما يجب ، وأنفه مما يغرى بالإنتاج المطرد . على أن هذه المؤلفات لا تذاع فى مصر وحدها ، بل فيها وفى بعض الأقطار الشرقية كذلك . فهذا الذى يبدو من رواجها ليس سببه كثرة الإقبال فى مصر ، وإنما سببه تعدد الأسواق ومناطق التوزيع . وما أظن هذا الكساد من قلة المتعلمين ، أو قلة الراغبين منهم فى القراءة ،

فإن أسعد المؤلفات حظا ، وأجلها بحثا وموضوعا . لا يباع منه على الاعلان ونشر الدعوة إلا قليل ، بالاضافة إلى هؤلاء ، مهما تكن قلة عددهم ، أو زهادتهم في القراءة والدرس . : على أننا لا نعتقد أن جمهورنا المتعلم زاهد في القراءة على الإطلاق ، وإن تكن رغبته فيها دون ما يجب على كل حال ، ولكننا نعتقد أنه يختص بالأدب الماخن أكثر أوقات القراءة ، ويؤثره على الأدب الجدد بالاهتمام والبذل وحسن الإقبال ، إما استجابة لداعية الشباب أن يطلع ما في هذا الأدب من أسرار الحياة اللاهية المترفة ، وهي من أهم ما يعنى به ، ويفتن في عرضه ، وإما مطاوعة من تفكك الماضي السقيم ، تصده عن أعلى الأمور إلى أدانيها في الأدب وغيره ، قناعة بالتافه اليسير ، تخف مثوته ، ويسهل تناوله ، وتلتقى الدعة فيه والاستقرار .

وإذا كان الجمهور المتعلم منصرفا حقا عن القراءة أيا كان المقروء ، فاللهذا الأدب الماخن يزداد على الأيام سطوة وذيو عا ؟ نعم ، لقد بدأ أول أمره هزيبا بائسا ، لا يكاد يماسك تحذلا ، ولا يأتلف شعنا وسوء حال : كأن كتابه نقرأ من صغار الأدباء ومجانهم ، وكان قراؤه بعض الخليلين من أهل الدعاية والتظرف ، ولم يكن يقرؤه من غيرهم أحد إلا لماما ، أو في أحوال قايلة تضيق النفس فيها ملالة أو حرجا ؛ فتسلط عايتها رغبة ماحة أن تردد النظرة العاجلة بين ألوان من المشاهد ، التماسا للتسلية والتفريج . لكنه اليوم تغمره النعمة ، وتبدو عليه دلائل البذخ في أدواته وأوراقه ، وفي طبعه وصوره ، وفي كل ما يتصل به . وأصبح يتولى الكتابة فيه بعض المثقفين من أهل النباهة والشأن ، ويواظب على قراءته جمهرة القارئين . وبخاصة الفتيان والفتيات من طلاب المدارس والمستخدمين لأنهم يجدون فيه مادة للتندر ، وزادا يعينهم على اصطناع التماجن والإضحاك . وبلغ من طغيان هذا الأدب ، واستفحال خطره ، أن بعض المجالات الجديدة اضطرت أن تغير وجهتها ، وتجري في تياره ، بعد أن نزعت جدها وتصونها ، وفاء بحاجة السوق ، ونفاسة على المجالات الماخنة أن تذهب وحدها بوفرة الريح وسعة الانتشار . إن هذا الأدب يخنى على اللغة والأخلاق معا : يخنى على اللغة بالصد عنها ،

والدعوة إلى العامية من طريق الإيحاء . فهو قد استغوى جمهرة القارئین ، واجتذبهم إلى نتاجه ، فوهنت صلتهم بالأدب الجد ، وغلبت عليهم الوحشة بل النفرة منه ، وهانت عليهم الفصيحة ، حتى كأنهم لا يرون حاجة إليها ، ولا يجدون في أنفسهم رغبة التزود منها ومحاكاة أساليبها الرفيعة كتابة وتخطا ، وأصبحت الدعوة إليها . والحرص على اصطناعها ، من دلائل التشدد والتزام ما لا يلزم في رأى كثير . ومن هؤلاء من يعلم أكثر من غيره أن مخالفة اللهجة الأصلية في التخاطب باللغات الأجنبية ، أو مجرد الخطأ في رسم كلماتها ، أو أداء بعض حروفها ، من الهنات المعينة التي يجب علاجها والتنزه عن الوقوع فيها ، اتقاء التهمك والسخرية . ثم إن هذا الأدب يوحى إلى قارئه أن يقلدوا مذاقه ، ويأخذوا في العبارة إخذة ، لطول تمرسهم به ، وإقبالهم عليه . وهي عبارة سخيصة ، تشيع فيها العامية كما تشيع الرقاق في الثوب الخلق ، بل إنها لا تسلم بعض الأحيان من العامية الساقطة المستهترة ، يصطنعها أربذل السوق في مجونهم ومهاترتهم . ذلك بأن أصحاب هذا الأدب همهم في إضحك القارىء ، وبعث الارتياح في نفسه . فإذا أعوزهم ذلك في عرض الوقائع ، أو ابتداع الأخيلة الطنزيّة ، اعتاضوا منه بالنكتة اللفظية ياتمسونها في التورية ومفارقة الأسلوب ، فإذا أمثال أو عبارات من العامية ، تأخذك على غرة منك ، فيكون لها عندك ما لكل جديد مباغت ، من نشوة ، وانبساط .

والموضوعات التي يتناولها هذا الأدب ، ويفرغ عليها من جهده - هي في الألبان كثر الغالب تافهة هيئة الشأن ، لا تكاد تليح فيها أثارة من قدوة حسنة أو مثل صالح ؛ لأن أصحابه (عفا الله عنهم) لا يريدون من هذه الناحية أيضا إلا اجتذاب القارىء ، وملق الغرائز الدنيا بهيج نوازي الشباب والمجانة . فهم لذلك يتخيرون قصص الخلاعة والاستهتار بما تنطوى عليه من مراودة وإغراء ، ويتسقطون أخبار الغرام الأثيم ، وحيل الفساق في اقتناص الفريسة وستر الخازي ويسترقون أسرار البيوتات وأنباء بعض الطوائف الليلية في أمورهم الخاصة ، ونحو هذا من صور الحياة العابثة .

وما نظن أحدا يشك أن في مثل هذه الموضوعات خطرا على أخلاق الشباب ،

أو أن فيها هذا الخطر على الأقل إذا بقى الأدب الماخن هذا التسلط والاستتار .
إنه إذ ذاك أجدر أن يوحى إلى القارى أن الحياة ملهى مستباح ، ليس فيه حى
ولا له قيود ، وأنه وحده هو الذى أن يكون المخلف المحروم . فإله لا يكون كبقية
الناس : ينتهك ما ينتهكون ، ويقترب ما يقتربون ، ثم يظهر مثلهم العفة والتصون ،
ويقول بلسانه عن التدين والفضيلة كما يقولون ! ولا عجب ، فلشباب عواطفه
المتوفزة ، ومقاييسه الخاصة .

ومضرة أخرى يجنيها هذا الأدب على قارئه ، أن إدمانه يشل عقولهم ،
ويعودهم القناعة بالتافه القريب من الحقائق والمعلومات ، فيقفون عنده مادة لحياتهم
الفكرية ، ولا يطبقون التماس الحقائق القيمة الفنية ، ملالة منها ، واستقلا
لمؤوتها من الجهد والمصايرة والجد . وهؤلاء بعض شبانا المتعلمين من مدمنى
قراءته ، تراهم ويا للخيبة والأسف لا ينجحون أن يعرفوا عن بعض المماتين
والممثلات ومن إليهم ، ما لا ينشطون لمعرفة معشاره أو الاستماع لحديثه عن
أبطال التاريخ ، وزعماء الشعوب ، وأساطين العلوم والفنون .

وإذا قيل لأصحاب هذا الأدب : رويدكم ، بعض هذا التماهى والإصرار ؛
قالوا : دعوة إلى التفاهة والرياء . كأن الصراحة فى رأيهم تنسج وتمتد ، حتى
تتناول الإباحة العارمة ، لا تنقيد بقيد ، ولا تقف عند حد ، وهؤلاء أو أكثرهم
من يرون من الخطأ الجسم والجهالة العمياء أن تخالف تقليدا من التقاليد التى
تقرضها الحياة الآلية ، ذات المراسم والنمط الواحد فيما لا طائل تحته ، ولا ضرر
من إغفال التقيد بقيوده .

إن على الأدباء والمربين فى هذا البلد واجبا وطنيا ، لا مفر لهم من أدائه
فرادى وجماعات ؛ لصيانة اللغة والأخلاق من أفاعيل هذا الأدب ، وسوء تأثيره
عليهم أن يجعلوا إنتاجهم من الأدب شائقا جذابا فى موضوعاته ومناهج بحثه ،
فى أسلوبه وعباراته ، فى إلحائه وطرق تعليمه ، فى ورقه وطبعه ، فى كل شىء فيه ،
وكل ناحية من نواحيه . وعليهم أن يدأبوا فى اجتلاء نفائس الأدب القديم ،
وتيسير الإفادة من أمهات كتبه : بطبعها الطبع العصرى الأنيق ، وتهذيب ماتدعو

الحاجة إلى تهذيبه ، وشرح مفرداتها الغريبة وأساليبها الرصينة شرحاً كافياً ، يدنى البعيد ، ويكشف عن المرمى . ويعنى عن المراجعة ، فليس البحث أو التمهين من الأمور الهيئية أو المحيية إلى كل قارئ . عليهم أن يعملوا هذا وغيره ، مما يجتذب جمهور القارئين ، إلى الأدب الجدد ، ويوزعهم أن يتروا من مناهله ، ويتأدبوا به .

أما أصحاب الأدب الماسجن فإننا نهيت بوطنيتهم وإخلاصهم لبلادهم أن يتدبروا عاقبة هذا الأدب ، ويسألوا أنفسهم عن مدى تأثيره ، إذا بقي على هذه الحالة ، وظلوا هم بموقفهم حياله من التمكن له ، والافتنان فيه ، ومهما يكن رأى الناس في هذا الأدب على حاله الحاضرة ، فالذي لا يقبل فيه شك ولا خلاف - أنه إذا أصلحت لغته وموضوعاته ، يصبح أدباً طيباً رشيداً ، لا غبار عليه ، ولا مطعن فيه .

فنحن لذلك إنما نريد بما نكتب عنه أن ندعو إلى تقويمه ، وتغيير وجهته ليس غير : نريد أن تكون لغته قوية متينة خالصة من أوراق العامية ، وموضوعاته شريفة مبرأة من المجون والابتذال . وبحسبه النقد والاجتماعيات وما يماثلها من الموضوعات ، ففيها متسع لجولاته عظيم . ولا ريب أنه يومئذ بفضل دعابته الحلوة وخياله المرح ، وتهكمه المرير يستطيع أن يخدم الصالح العام خدمة جديرة بأطيب الحمد والثناء . والله الهادي إلى سواء السبيل .

على النجدي ناصف